مَهَمّاتُ المنهجِ الوصفيّ في الارتقاءِ بالمنهجِ النّحويّ

الدكتور حقّيّ إسماعيل الجبوريّ

The adjectival stints in developing the grammatical curricula

phd. Haqqi Ismaeel Al Juboory

The grammatical and linguistically studies have an effective trace in the field of the scientific search which took the attention of many linguistic and searcher ,and they found that were many certain characteristics, and it have been found many which were unknown before.

And as a result for this developing studies, it took a wide range in the scientifically search and it`s curricula, and in the subjects of the language branches inside certain study curriculum, and also describing the curriculum that considered the great effect in the field of searches ,also this curricula had it`s allies ,it`s aspects, basics and it had the right curricula elements.

Les missions d'approche descriptive pour améliorer l'approche grammaticale

Dr: Hakki Ismail Al-Jubouri…

Pour les études linguistiques et grammaticales un impact efficace et significative dans le domaine de la recherche scientifique qui attire l'attention de nombreux linguistes et chercheurs vers lui, et on a trouvé pour beaucoup d'entre eux des contenus dissimulés spécifiques linguistiques et grammaticales, ainsi elle a souvent révélé ce qu'on n'a pas été connu auparavant.

Et par conséquent de l'évolution de ces études, ells ont pris une grande partie dans la recherche scientifique, sa méthode, et des titres des branches de la langue dans le programmes spécifiques, et de décrire des approches qui sont prises effectivement dans le domaine de la recherche, cette approche en outre est devenue avoir ses partisans, ses traits, et ses références et elle a possédé des éléments de programme solides.

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله ربّ العالمين، والصّلاة والسّلام على المصطفى المختار، وعلى آله الغرّ المنتجبين الأطهار الّذين قال فيهم الله تعالى:"إنّما يريد الله ليذهب عنكم الرّجس أهل البيت ويطهّركم تطهيرا".

فهذا بحث في المنهج سُمِّيَ (مَهَمّات المنهج الوصفيّ في الارتقاءِ بالمنهج النّحويّ) ليتخصّص في الجانب النّحويّ ومن المعلوم إنّ للدّراسات اللّغويّة والنّحويّة أثرا فعّالا وكبيرا في ميدان البحث العلميّ، ولذلك توجّهت إليها أنظار كثير من علماء اللّغة والباحثين، إذ أبانت عن كثير من مكنونات الدّرس اللّغويّ بنحو عامّ، واللّغات بنحو خاصّ، وأفصحت عن كثير ممّا لم يكن معروفا من قبل، ونتيجة لتطوّر تلك الدّراسات فقد ذاع صيتها واشتهرت، وأخذت مجالا كبيرا في البحث العلميّ، فتنوّعت مناهج هذا البحث، وتتالت، كلّ بحسب توجّهه وميدانه، وما يعالج من فروع اللّغة ضمن المنهج المعيّن.

والوصف ــ بكونه منهجا من المناهج ــ أخذ تأثيره الكامل في محفل البحث، وعدّ منهجا بارزا، له أعلامه، ومناصروه، وملامحه، وأسسه، وصار يتملك مقوّمات المنهج الرّصين.

وبدهيّ أن يتقدّم على كلّ موضوع التّعريف به، فما المقصود بـ(المنهج الوصفيّ)؟، وتفرض علينا حال الإبانة أن نتبيّن مفهوم كلّ من (المنهج)، ثمّ (الوصف) لغة واصطلاحا، كما ورد في معجمات اللّغة، ومصادرهما، ومراجعهما، وصولا إلى حدّ (المنهج الوصفيّ).

فـ(المنهج) لغة: أشارت معجمات اللّغة تحت مادّة (ن هـ ج) إلى ما يرتبط بمفهوم هذا الاصطلاح، وأبانت عنه، فقيل: (النَّهْجُ: الطّريقُ، وقد نَهَجَ فلانٌ الطّريقَ: بَيَّنَهُ، وهو مِنْهَاْجٌ مستقيم)[1]. واتفقت معجمات اللّغة على تحديد هذا المفهوم، فـ:(طريقٌ

(١) مجمل اللّغة: مادّة (ن هـ ج)، ويُنْظَر: الصّحاح في اللّغة والعلوم: مادّة (ن هـ ج).

نَهْجٌ: بَيِّنٌ واضحٌ، وهوَ النَّهْج، قال أبو كبير[١]: فَأَجَزْتُه بِأَفَلَّ تَحْسَبُ أَثْرَهُ نَهْجًا أَبَانَ بِذِي فَرِيْغٍ مَخْرِفِ

والجمع نَهْجَاْتٌ ونُهُجٌ ونُهُوْجٌ،...، وطرقٌ نَهْجَةٌ وسبيلٌ مُنْهَجٌ كنَهْج، ونَهَجَ الطّريقَ: وَضَّحَهُ، والمِنْهَاْجُ كالمَنْهَج، وفي التّنزيل:"لِكُلٍّ جَعَلْنَاْ شِرْعَةً وَمِنْهَاْجًا"[٢]،...والمنهاج: الطّريق الواضح، واستنهجَ الطّريقَ: صار نهجا، ...، والنّهج: الطّريق المستقيم)[٣].

ويعزّز هذا ويوثّقه قولهم:(النَّهْجُ: الطّريق الواضح البيّن المستقيم، ج نَهْجَاْتٌ ونُهُوْجٌ ونُهُجٌ، طريقٌ نَهْجَةٌ وناهجة: واضحة، المَنْهَجُ والمِنْهَاْج: الطّريق الواضح)[٤].

وتأسيسا على ما تقدّم فإنّ (النّهج)، و(المنهج)، و(المنهاج) ثلاثة ألفاظ مترادفة تدلّ على مفهوم واحد؛ الطّريق المستقيم البيّن الواضح، ومصدر نهج نهجا ونهوجا، والمنهج مصدر ميميّ، ولا يفترق حدّه اصطلاحا كثيرا عنه في اللّغة، حيث يكمل سابقه مع بعض زيادة فيه؛ بيانا لوظيفته.

أمّا اصطلاحا فالـ(منهج): (خطوات منظّمة يتّخذها الباحث لمعالجة مسألة أو أكثر، ويتتبّعها للوصول إلى نتيجة"[٥]، أو:(الطّريق الواضح في التّعبير عن شيء، أو في عمل شيء، أو في تعليم شيء طبقا لمبادىء معيّنة، وبنظام معيّن، وبغية الوصول إلى غاية معيّنة)[٦].

ويستوي المفهومان من حيث إنّ المنهج هو الطّريق الّذي يسلكه الباحث في أمر ما؛ للوصول إلى نتيجة يريدها، أو حقيقة يبتغيها، فضلا عن أنّه طريقة التّفكير الّتي يسير على هديها الباحث في بحثه، فكان المنهج الوصفيّ مجموعة الخطوات الّتي يتتبّعها الباحث للوصول إلى حقائق؛ كلّيّة، وجزئيّة، تكون عماد البحث، ونتائجه،

(١) ديوان الهذليّين: ٢ / ١٠٧ برواية :(فأجزته بأفلّ يحسب أثره).

(٢) من سورة المائدة: ٥ / من الآية ٤٨.

(٣) لسان العرب: مادّة (ن هـ ج)، ويُنْظَر: القاموس المحيط: مادّة (ن هـ ج).

(٤) معجم متن اللّغة: مادّة (ن هـ ج)، والصّحاح في اللّغة والعلوم: مادّة (ن هـ ج).

(٥) معجم متن اللّغة: مادّة (ن هـ ج)، والصّحاح في اللّغة والعلوم: مادّة (ن هـ ج).

(٦) معجم متن اللّغة: مادّة (ن هـ ج)، والصّحاح في اللّغة والعلوم: مادّة (ن هـ ج).

وقد زاد على المفهوم اللّغويّ ما يجب أن يكون عليه الباحث، والغاية الّتي يبحث من أجلها.

الوصف لغة: هو:(وصفك الشّيء بحليته ونعته)[١]، وتفصّل بعض المعجمات القول في هذا الحدّ؛ للدّلالة على تحلية الشّيء، ونعته، فالوصف:(تحلية الشّيء، ووصفته أصفه وصفا، والصّفة: الأمارة اللاّزمة للشّيء)[٢]، وعضّد الجوهريّ (٣٩٨ هـ) هذا المفهوم بقوله:(وصفت الشّيء وصفا وصفة، والهاء عوض عن الواو، وتواصفوا الشّيء من الوصف)[٣].

أمّا الوصف اصطلاحا: فيُقْصَدُ به:(الحالة الّتي يكون عليها الشّيء من حليته ونعته؛ كالسّواد والبياض، والعلم والجهل)[٤]، والياء ياء النّسبة إلى الوصف، فالوصف والصّفة هنا رديفان.

وبضمّ الاصطلاح الثّاني إلى الأوّل يبرز اسم أحد المناهج اللّغويّة الحديثة، فماذا يعنون به؟.

إنّه منهج من مناهج البحث اللّغويّ والنّحويّ الحديثة، ظهر في أوروبّا، ووظيفته بحث النّصوص اللّغويّة، ووصفها وصفا طبيعيّا مباشرا، كما يشير إليه ظاهر التّركيب، من دون التّدخل في اصطناع الباحث فيه صيغا، أو قواعد متنوّعة لا تتناسب وظاهر النّصّ، ومن دون أن يجعل هناك تأويلا، أو تعليلا، أو يعمد إليها؛ ليجعل ما انحرف عن القاعدة واقعا تحتها، وتابعا إليها.

يُنْسَبُ المنهج الوصفيّ الحديث إلى العالم السّويسريّ فردينان دي سوسير (١٩١٣ هـ)، وقبل الولوج في ما يختصّ بهذا المنهج، لا بدّ من التّوطئة للمدّة الّتي سبقت ظهور هذا المنهج في الدّرس اللّغويّ؛ لتتّضح لنا رؤية ماهيّة المناهج الّتي تقدّمت عليه زمنا، وطبيعة منهج البحث فيها.

---

(١) تهذيب اللّغة: مادّة (و ص ف)، ومعجم مقاييس اللّغة: مادّة (و ص ف).

(٢) تهذيب اللّغة: مادّة (و ص ف)، ومعجم مقاييس اللّغة: مادّة (و ص ف).

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس: مادّة (و ص ف)، والمعجم الوسيط: مادّة (و ص ف).

(٤) تاج العروس من جواهر القاموس: مادّة (و ص ف)، والمعجم الوسيط: مادّة (و ص ف).

بعد أن تقدّم الزّمن بالنّحو القديم ــ الّذي أفاد من أفكار أرسطو حول اللّغة اليونانيّة وعلم المنطق وما يتصلّ بتلك الأفكار ــ، صار مضمون هذا الدّرس النّحويّ افتراضات يثيرها أصحابه، أساسها العلاقة الوثيقة بين اللّغة والعقل، وهي الّتي انتشرت في القرن السّابع عشر الميلاديّ.

والنّحو القديم ــ بوجازة ــ مجموعة من الآراء مكوّنة في اللّغة الفصيحة، يُرَدُّ أصلها إلى قواعد نُظِّمَت، وأُصِّلَت، وسُنَّت في القرن الثّامن عشر بإنكلترا، مضافا إليها دراسات أخرى في تاريخ اللّغة برزت في القرن التّاسع عشر(١).

فتشعّبت دراسة علم اللّغة بفروعه المتعدّدة، وتعدّدت مناهجه حتى غدا لكلّ فرع منهج معيّن.

ومن هنا نشأ علم اللّغة التّاريخيّ (*Historical Linguistics*)، ويقوم منهج البحث فيه على أساس البحث في الجوانب التّاريخيّة للّغة المدروسة، فكان المنهج التّاريخيّ يبحث في تطوّر ظواهر اللّغة الواحدة على مرّ قرون، آخذا تطوّر جوانبها الصّوتيّة، والصّرفيّة، والنّحويّة، والمعجميّة، وتغيّرها عبر تاريخها، فمثلا يدرس تطوّر الصّيغ، والأبنية الصّرفيّة، وطرائق توليد المفردات دراسة صرفيّة، ونحويّة، تاريخيّة في لغة معينّة، تُوْضَعُ قيد الدّراسة عبر قرون متعدّدة؛ لاستكشاف تطوّر الاستعمال اللّغويّ في الماضي، وما عليه الآن، دارسين ذلك التّطوّر تاريخيّا.

وتبعه في الظّهور علم اللّغة المقارن (*Camparative Linguistics*)(٢) في القرن التّاسع عشر، الّذي يُعَدُّ قرن الدّراسات اللّغويّة المقارنة، فكوّن منهجا مهمّا من مناهج البحث اللّغويّ، وهدف هذا المنهج كشف العلاقات الّتي تربط كلّ لغة مع غيرها، ممّن تنتظم مع قريناتها في الأسرة اللّغويّة الواحدة، وتعرّف تلك العلاقات.

---

(١) يُنْظَر: العربيّة تواجه العصر: ٧، وأضواء على الدّراسات اللّغويّة المعاصرة: ١٠١.

(٢) يُنْظَر: علم اللّغة العربيّة ــ مدخل تاريخيّ مقارن في ضوء التّراث واللّغات السّاميّة ــ: ٣٥، واللّغة العربيّة عبر القرون: ١٥ ــ ١٦.

أمّا موضوع هذا العلم فيتمثّل بدراسة الظّواهر الصّوتيّة، والصّرفيّة، والنّحويّة، والمعجميّة من اللّغات المنتسبة إلى أسرة لغويّة واحدة[١]، فمثلا العربيّة إحدى الجزريّة، وذلك يفرض على الباحث اللّغويّ:(أن ينهج في دراسته نهجا مقارنا، يربط اللّغة العربيّة بغيرها من اللّغات)[٢] من الفصيلة نفسها.

ولذلك بُنِيَ المنهج المقارن على أساس تقسيم اللّغات إلى أسر، ومجال هذا الفرع إيضاح العلاقات التّاريخيّة الرّابطة للّغات الّتي تكوّن بمجموعها أسرة لغويّة واحدة، وقد اتّجه الباحثون اللّغويون المحدثون نحو دراسة اللّغة دراسة تاريخيّة، ودراسة مقارنة بعد إعلان ويليام جونز آراءه عن اللّغة السّنسكريتيّة عام ١٨٧٦ م[٣].

وفي أواخر القرن التّاسع عشر، وبداية القرن العشرين، برز فرع جديد من علوم اللّغة سُمِّيَ علم اللّغة الوصفيّ (*Descriptive Linguistics*)، وهو: (فرع من فروع علم اللّغة الحديث)[٤] مهمّ وبارز، ويقوم على أساس الوصف؛ وصف النّصّ ــ موضوع الدّراسة ــ وصفا واقعيّا، كما هو منطوق، أو مكتوب، فالمنهج فيه وصفيّ، ويبحث لغة واحدة أو لهجة واحدة، ويجعلها محور دراسته، آخذا نصوصها من أفواه متكلّميها، أو كما هي مكتوبة، من دون إخضاعها لقولات العقل والمنطق والفلسفة، أو ما يُحْتَمَلُ أن يسكن وراء النّصّ من دلالات.

ويشترط هذا المنهج سكون اللّغة أو اللّهجة، مقيّدا دراستها شريطة استقرارها في مكان معيّن، وزمن محدّد.

ولم يكن التّصور قائما في الذّهن حول إمكانيّة دراسة اللّغة أو اللّهجة دراسة علميّة، حتى جاء سوسير، فأثبت جواز ذلك وصفيّا، فـ:(استعمال (الوصفيّ) مصطلحا في

---

(١) يُنْظَر: في نحو اللّغة وتراكيبها ــ منهج وتطبيق ــ: ٢٣ ــ ٢٤، والعربيّة وعلم اللّغة البنيويّ ــ دراسة في الفكر اللّغويّ العربيّ الحديث: ٩٥.

(٢) دراسات في فقه اللّغة: ط.

(٣) يُنْظَر: اللّغة بين العقل والمغامرة: ١٢٧، والعربيّة تواجه العصر: ٨، وعلم اللّغة العامّ: ١٩ ــ ٢٠.

(٤) النّحو العربيّ والدّرس الحديث ــ بحث في المنهج ــ: ٢٣.

الدّرس اللّغويّ إنّما كان نتيجة للمنهج التّاريخيّ الّذي وجّه أعمال اللّغويّين الأوروبيّين، حتى أواخر القرن الماضي)[١].

ويُعَدُّ سوسير ــ عند المحدثين ــ الأكثر شهرة بين من عرفهم الدّرسان؛ اللّغويّ، والنّحويّ في العصر الحديث[٢]، فضلا عن كونه مؤسّسا حقيقيّا لعلم اللغة الحديث.

إذ استطاع أن يثبت نظريّته في ميدان البحث العلميّ اللّغويّ، ويرسّخ أصولها، ويؤصّل مسائلها، ومكّنه من أن يأخذ بعده ومداه على مستوى الدّرس اللّغويّ في العصر الحديث.

وتتجلّى فضيلة سوسير من حيث وضعه قواعد هذا المنهج الّذي صار في ما بعد رأس مناهج البحث، وعمل على تبيان خطواته، وماهيّته، وأهمّيّته في الدّرس اللّغويّ، وما يجب أن تكون عليه دراسة اللّغة، وسنّ له الأسس الّتي تكفل له شخصيّته، واستقلاليّته عن غيره من المناهج الأخرى، حتّى تمكن من إرساء دعائمه

أسباب ظهور المنهج الوصفيّ

من الدّواعي المهمّة لظهور هذا المنهج دعوة جماعة من الباحثين الغربيّين إلى دراسة اللّغة دراسة تاريخيّة، وهذه الجماعة تُعْرَفُ بالنّحويّين الشّبّان (*Junggrammatic*)، غير أنّ سوسير كان قد عارض:(هذا الاتّجاه، وقرّر أنّ اللّغة ينبغي أن تُدْرَسَ في مرحلة خاصّة، أو حالة خاصّة، ....، أي تدرس حالة استقرارها في بيئة مكانيّة، وزمانيّة محدّدة، .... إنّ دراسة اللّغة في حالة استقرارها هو ما يُعْرَفُ الآن بالمنهج الوصفيّ)[٣]، ولم يقنع سوسير بدراسة اللّغة تاريخيّا، غير أنّه رأى أنّ من الواجب طرح دراسة اللّغة من هذا الجانب الّذي عدّه غير كاف في الدّراسة، مفصحة بعد ذلك أنّ البحث في دراسة اللّغة ليس علميّا، وتعليق ذلك عنده أنّ الباحث التّاريخيّ في اللّغة لا يتمكّن من تعليق مبادىء البحث العلميّ، ورأى

(١) النّحو العربيّ والدّرس الحديث ــ بحث في المنهج ــ: ٢٣.

(٢) يُنْظَر: نظريّة النّحو العربيّ في ضوء مناهج النّظر اللّغويّ الحديث: ٢٣، ومدخل إلى الألسنيّة: ٢٩.

(٣) النّحو العربيّ والدّرس الحديث ــ بحث في المنهج: ٢٩ ــ ٣٠.

اللّغويّون المحدثون أنّ المنهج الوصفيّ هو:(المنهج الصّالح لدراسة اللّغة على أساس علميّ)[١]، وصار هذا المنهج يمتلك مقوّمات المدرسة، وبدت له طريقة بحث وتفكير خاصّ به، حتّى أضحى مدرسة لغويّة بارزة؛ ولذلك فـ:(قد أصبحت مدرسة دي سوسير تُعْرَفُ في ما بعد بالمدرسة التّركيبيّة، أو البنيويّة)[٢]، أو البنائيّة، أو الشّكليّة، على أساس اعتمادها على ظواهر النّصوص وبنى التّراكيب اللّغويّة المتنوّعة، ومن ثمّ فإنّ هذا المنهج يوجّه أغلب اهتمامه إلى التّراكيب اللّفظيّة الظّاهرة (البنية السّطحيّة)، من دون التّخلّي عن التّوجّه اليسير إلى ما يؤدّيه ذلك التّركيب من وظيفة.

فالدّرس الوصفيّ يهتمّ ببنية التّراكيب اللّغويّة، أو اللّهجيّة، مقتصرا على لغة واحدة، أو لهجة واحدة، واهتمامه بظواهر النّصوص والتّراكيب اللّفظيّة الظّاهرة عند الباحث الوصفيّ كبير جدّا، وبرأيهم إنّ الباحث في اللّغة يجب أن ينطلق من التّراكيب اللّفظيّة؛ لتحديد عناصر الجملة، وبيان حدودها، من دون ما يشير إلى تأويل، أو تعليل، وإنّما وصف النّصّ كما يظهر وصفا يسيرا، محدّدا علاقة اللّفظ بما يتقدّم عليه، وما يتّأخر، ومن ثمّ وصف علاقة الألفاظ مجتمعة، وما تؤدّيه تلك الألفاظ بعلاقاتها من وظيفة دلاليّة؛ لذلك صارت:(التّركيبات الشّكليّة هي همّ اللّغويّ الأوّل؛ لأنّ أهمّ خصائص اللّغة حتّى في أكثر اللّغات بدائيّة هو اكتمالها الشّكليّ، لكنّ ذلك لا يعني درس التّراكيب مستقلّة عمّا تؤدّيه من وظيفة)[٣]، حيث إنّ اللّغة أو اللّهجة تتألّف من وحدات صوتيّة، يكون على أساسها توليف الكلمات، وانتظامها في جمل معبّرة عن معنى.

ويمكن أن يُطَبَّقَ هذا المنهج عند إرادة تحليل البنية اللّغويّة، أو اللّهجيّة للغة، أو لهجة ما، وعن طريقه تُدْرَسُ الظّواهر الصّوتيّة، والصّرفيّة، والنّحويّة، والمعجميّة

(١) النّحو العربيّ والدّرس الحديث ــ بحث في المنهج: ٢٩ ــ ٣٠.

(٢) علم اللّغة العامّ: ٤.

(٣) النّحو العربيّ والدّرس الحديث ــ بحث في المنهج ــ: ٣٥، ويُنْظَر: مناهج البحث في اللّغة: ٣٩.

للغة، أو لهجة كما بحثها المنهجان؛ التّاريخيّ، والمقارن، مع مراعاة افتراق طرائق البحث في ما بينها كلاّ بحسب طبيعة بحثه.

ولذلك فقد كان للّفظ عندهم أهميّة عظيمة، قام على أساسها المنهج الوصفيّ، فكان تعامله مع الظّواهر الشّكليّة تعاملا واقعيّا قائما على أساس ما يُنْطَقُ من أصوات تُرْصَد؛ لتكوّن تركيبا لفظيّا، واصفين أجزاء ذلك التّركيب، وعناصره، ثمّ يصفون التّركيب كلّه؛ استخراجا لدلالته، ومن هنا سُمُّوا (الوصفيّين).

وتأسيسا على ما تقدّم فإنّ الظّاهر غايتهم المنشودة، فضلا عن تركيزهم على أنّ المنهج العلميّ الصّائب:(ينبغي أن يتركّز على دراسة التّركيبات الشّكليّة للّغة، وهي تقتضي دراسة الأنماط في الصّوت، والكلمة، والجملة)[١]؛ ولذلك كانت دراسة الوصفيّين شاملة من الصّوت اللّغويّ حتّى الجملة.

إنّ انطلاقة الوصفيّين تبدأ من (الفونيم)[٢]، وهو أصغر الوحدات الصّوتيّة، منتقلة إلى اللّفظة الواحدة ضمن النّسيج الجمليّ، وصولا إلى دراسة هيأة الجملة اللّفظيّة، وإليها تتوجّه عنايتهم واهتمامهم، وبما أنّهم ينطلقون من أصغر الوحدات الصّوتيّة، فذلك يوجب على الباحث والدّارس الوصفيّين أن تثبت لهما الدّراية بـ(علم الأصوات).

وقد أكد ذلك علماء اللّغة بالقول:(قبل أن يبدأ الباحث في دراسة أيّة لغة من اللّغات، لا بدّ له أن يتعلّم علم الأصوات اللّغويّة العامّ، الّذي لا يختصّ بلغة بعينها، وإنّما يبحث في ظواهر الأصوات اللّغويّة؛ غير مقيّدة بهذه اللّغة)[٣].

ومن البدهيّ أن يكون لهذا المنهج ضوابط؛ أهمّها: إنّ العمليّة الوصفيّة تبدأ من الصّورة المكوّنة في الذّهن (الصّورة الذّهنيّة) الّتي تظهر في ما بعد عن طريق أعضاء النّطق أوّلا، وبحسب ترتيب المعاني في النّفس ثانيا؛ لأنّك: (ترتّب المعاني

(١) النّحو العربيّ والدّرس الحديث ــ بحث في المنهج ــ: ٣٥، ويُنْظَر: مناهج البحث في اللّغة: ٣٩.

(٢) يُنْظَر: مناهج البحث في اللّغة: ١٥٧، والفونيم بين النّحو العربيّ القديم وعلم اللّغة الحديث: ٧٩.

(٣) اللّغة بين المعيّارية والوصفيّة: ١٥٣.

أوّلا في نفسك، ثمّ تحذو على ترتيب الألفاظ في نطقك)[١]، ومن هذا المنطوق تثبت الألفاظ كتابة؛ للتّعبير عن معنى.

ومن هذا المكتوب نهضت عنايتهم، وبهذا ينتصب مبدأ مهمّ من مبادئهم، على أساس أنّ للّغة عندهم وجهين؛ الكلام، والكتابة، وللمنهج الوصفيّ ــ كغيره من مناهج البحث اللّغويّ ــ ميّزات؛ منها: إنّه منهج استقرائيّ، بمعنى أنّه يقوم على الاستقراء، الّذي يُعَدُّ الخطوة الأولى والرّئيسة في عمل هذا المنهج، و:(هدف المنهج الاستقرائيّ أن يوصلنا إلى كشف القوانين، ...، ومن ثمّ سُمِّيَ الاستقراء منهج الكشف)[٢] عن الحقائق، والقوانين، والقواعد (الكلّيّة، والجزئيّة)، وهو استقرائيّ؛ لاعتماده على المادّة اللّغويّة المنتقاة من الواقع اللّغويّ مباشرة، عن طريق الاستعمال.

إنّ معايشة الاستعمال، والتّجربة ممّا يحثّ عليه المنهج الوصفيّ؛ لأنّ فيه مراقبة للنّطق الصّحيح، متّخذا من ذلك الأساس في إقامة القواعد، واستنهاض الأحكام، والقوانين اللّغويّة، واستنباطها، وينبغي لنا هنا أن نشير إلى أنّ الاستقراء الخطوة الأولى على سبيل تقعيد القواعد، وتأصيل الأصول، وسنّ الأحكام اللّغويّة؛ ولذلك فإنّ الاستقراء والتّقعيد:(طريقان من طرق الوصف في دراسة اللّغة، يتوسّط بينهما عمل ثالث هو التّقسيم، ثمّ تسمية كلّ قسم من الأقسام النّاتجة)[٣]، وتعليقا على ما تقدّم نقول: إنّ العمليّة للّغة أو اللّهجة أثناء تحليل الظّاهرة اللّغويّة تتّخذ طرائق ثلاثا؛ هي:

أوّلا: استقراء المادّة اللّغويّة من أفواه متكلّميها، مشافهة وسماعا، والاستقراء الخطوة الأولى والأهمّ في عمليّة الوصف؛ لأنّه يعتمد على المراقبة المباشرة للمنطوق، ولولا الاستقراء لما بقيت أهمية للخطوتين الباقيتين، حيث تقوم الخطوتان الباقيتان على أساسه.

---

(١) دلائل الإعجاز: ٢٩٥.

(٢) الاستقراء والمنهج العلميّ: ٢٤، ويُنْظَر: مناهج البحث عند مفكّري الإسلام واكتشاف المنهج العلميّ في العالم الإسلاميّ: ٥٩.

(٣) اللّغة بين المعيّاريّة والوصفيّة: ١٥٤.

ثانيا: تقسيم المادّة اللّغويّة المجموعة المنطوقة (المستقراة)؛ بغية تقسيمها بحسب الأبواب النّحويّة، ومن ثمّ تسمية كلّ قسم من أقسام هذه المادّة اللّغويّة، ووضعها في بابها المختصّ بها.

ثالثا: تسجيل الاصطلاح الخاصّ بكلّ قسم، وتوثيقه، وصولا إلى ما يُطْلَقُ عليه بالقواعد (الكلّيّة، والجزئيّة)، وهذه القواعد نتيجة من نتائج الاستقراء، وغاية من غايات الباحث الوصفيّ، وعلى ذلك فإنّ القاعدة النّحويّة والحكم النّحويّ نتيجة من نتائج الاستقراء، ولا يجوز أن يكون الاستقراء نتيجة للقاعدة، فذلك مناف لمنطق العقل، حيث تُبْنَى القاعدة بالاعتماد على الاستقراء؛ ولذلك يصحّ القول: إن القاعدة بنت الاستقراء.

وقد اكتسبت مدرسة سوسير حضورها الفاعل في ساحة البحث اللّغويّ الحديث، وعُدَّت أنموذجا:(رائدا للعلوم الإنسانيّة وقدرتها على أن تصبح علوما دقيقة تضارع العلوم الطّبيعيّة والرّياضيّة في خضوعها للمنهج العلميّ المضبوط)[١]؛ لأنّه ساعد على ترسيخ التوجهات العلميّة في الدّرس اللّسانيّ، وتعميقها، وتمكّن من تحقيق كينونة، ووحدة مستقلّة لهذا المنهج؛ خاصّة به؛ ولذلك فقد خلص علم اللّغة من تأثيرات علوم كثيرة، وقد صارت الأفكار الّتي تقدّم بها سوسير المنهج العامّ المتكامل الّذي تتحرّك فيه المدارس، والنّظريّات اللّغويّة، ومناهج البحث التي أعقبت مدرسته في الظّهور، حيث إنّ مساهمة سوسير في الدّرس اللّغويّ الحديث:(تشمل أسلوبا فكريّا بأكمله، وإطارا كاملا من الاهتمامات والقيم، تدور ضمنه اليوم جميع المناقشات الأساس، ولا يشذّ عن ذلك إلاّ بعض الموضوعات اللّغويّة الثّانويّة)[٢]، وبهذا المستوى كانت مساهمة سوسير ذات أثر فعّال في استنهاض الدّراسات اللّسانيّة، وجعلها تدور في حيّز من آراء اللّغويّين، وأفكارهم، فضلا عن اهتمام المدارس اللّغويّة بما طرحه صاحب هذا المنهج من أفكار، وآراء، ووجهات نظر

(١) نظريّة البنائيّة في النّقد الأدبيّ: ٢٤.

(٢) علم اللّغة العامّ: ٣.

تحمل خصائص إيجابيّة في عمق هذا الدّرس، وقد أغنت مساهمته الدّرسين؛ اللّغويّ، والنّحويّ.

وقد كوّنت ملحوظات سوسير، وأفكاره علامة بارزة في منهج البحث، ووجدت ترحيبا كبيرا من معاصريه، وممّن جاء بعده حتّى يومنا. وراق لكثير من الباحثين والدّارسين أن يحذو حذوه؛ لما وجدوه في هذا المنهج من التّعبير عمّا في أفكارهم؛ ولأنّه يتوافق وروح اللّغة وطبيعتها.

سمات المنهج الوصفيّ

الوصف ضدّ المعيار، ويتبعه أنّ المنهج الوصفيّ نقيض المنهج المعياريّ، وأنّ لكلّ منهما وجهة معيّنة يتّجه إليها، لأنّ لكلّ منهما طريقة بحث.

فالمنهج المعياريّ يقوم على مبدأ الصّواب والخطأ، وافتراض الصّيغ المتنوّعة، وإن خالفت القاعدة الّتي سُنَّت؛ ليردّ ما خالف القاعدة، وخرج عنها إليها، متّبعا في ذلك سلوك أنماط التّأويل، والتّعليل، وما جاوز هذين الأمرين.

وقد اعتادت الكتب اللّغويّة الحديثة أن تذكر سمات المنهج المعياريّ، وحين تأتي إلى المنهج الوصفيّ تفصح أنّها سمات المنهج المعياريّ (مقلوبة)، وهنا نتبّين سمات المنهج الوصفيّ بجلاء، ومن سماته:

١ / الابتعاد عن مسائل القياس، والتّعليل، والتّأويل، وافتراض الصّيغ المعيّنة، واختلاق القواعد الّتي هي من أسس المنهج المعياريّ، وسماته، كون الوصفيّة تهدف لوصف النّصّ وصفا واقعيّا موضوعيّا مباشرا، كما نُطِقَ به، أو كما هو مكتوب، من دون لجوء إلى تأويل، أو تعليل، ومن دون الغوص في ما وراء النّصّ من تفصيلات، تبعد النّصّ عن حقيقته اللّغويّة؛ لأنّ التّأويل، والتّعليل يلجأ إليهما الباحث المعياريّ متى ما أراد إرجاع ما انحرف عن القاعدة إليها، كتأويل نصّ قرآنيّ، أو بيت شعر، أو غير ذلك، وتعليل ذلك التّأويل، ويأبى الوصفيّون اللّجوء إليهما لأمرين؛

أوّلهما: نفوره عن هذه المسائل، وعدم حاجته إليها؛ لتناقضها ومنهجه.

الثّاني: اعتماده على الاستقراء الّذي اتّخذه الباحث الوصفيّ أساسا له في عمله.

٢ / الابتعاد عن الأخذ بمقولات المناطقة، وعدم التّأثّر بأقوال الفلاسفة ومسائلهم؛ كون مباحث هذه العلوم، وفروعها قد وضحت، واستقرّت، واحتفظ كلّ علم بحدوده، وميدان بحثه، وتوضّحت رؤاه في البحث العلميّ، وترسّخت أصوله، وسماته، وميّزاته، وتكاملت أركانه، وليس هناك الآن تداخل بين العلوم في الحدود، ولا اختلاط في المنهج.

٣ / تحديد المستوى اللّغويّ الّذي يروم الباحث الوصفيّ دراسته، ووصفه، وبحثه، وموجب هذا التّحديد خصائص كلّ مستوى، فللمستوى القرآنيّ خصائص، وسمات لا تتوافر في المستوى الشّعريّ، وكذا الأمر في المستوى النّثريّ من الكلام المنطوق به؛ ولاستكشاف خصائص كلّ مستوى وسماته يجب أن تكون هناك مستويات مفترقة للنّصوص المختلفة (قرآنا، وشعرا، ونثرا، وأمثالا)، وعلى ذلك لا يجوز للباحث الوصفيّ أن يجمع بين مستويين مختلفين ويخضعهما لدراسة واحدة؛ لافتراق خصائص كلّ مستوى عن الآخر؛ ولذلك يجب جمع النّصوص القرآنيّة، وبحثها بمعزل عن غيرها؛ استظهارا لخصائصها وسماتها، واستجلاء لقواعدها الّتي تُسْتَنْبَطُ من استقراء تلك النّصوص؛ بناء على ظواهرها، وكذلك نصوص بقيّة المستويات، وبذلك تتوافر لدينا مجموعة من القواعد النّحويّة، الّتي تُعَدُّ حصيلة استقراء المستويات المفترقة، وهذه المجموعة من القواعد تمثّل اللّغة بمجموعها، والتّعامل مع كلّ نصّ على حدة يُعْرَفُ بـ(وحدة النّصّ المستشهد به).

٤ / يأخذ الباحث الوصفيّ بالدّراسة الوصفيّة لغة واحدة، أو لهجة واحدة؛ لأنّ هذه المدرسة تُعْنَى بذلك في بحث اللّغة، أو اللّهجة، واصفا بناها التّركيبيّة، أو ظواهرها الصّوتيّة، والصّرفيّة، والنّحويّة، والمعجميّة كما هي، من دون أن يدخل معها لغة أخرى، أو لهجة أخرى بقصد الموازنة، أو المفاضلة بينهما، ولذلك يقوم الدّرس الوصفيّ على العناية بـ:(دراسة جميع الحقائق اللّغويّة للغة واحدة)[١].

(١) التّطوّر اللّغويّ التّاريخيّ: ٣٩، ويُنْظَر: جوانب من نظريّة النّحو: ٦.

٥ / تحديد زمنيّة الأخذ؛ ليتمكّن الباحث الوصفيّ من وصف اللّغة في زمن محدود، حيث تنحصر اللّغة، فيسهل وصفها في زمن معيّن(١)، ويستطيع ــ بعد ذلك ــ إيضاح سماتها، وكشف خصائصها؛ لأنّا لو جمعنا اللّغة ــ إن كنّا وصفيّين ــ في مدّة غير محدّدة، لتداخلت السّمات، واختلطت الخصائص، وليس يمكن وصف اللّغة لعدم حدّها بزمن معيّن، فضلا عن أنّ بحث اللّغة في زمن غير محدّد من صميم المنهج التّاريخيّ، وليس الوصفيّ، ولا ضابط لتحديد الزّمن إلاّ أن تكون اللّغة موضوع الدّراسة مستقرّة ساكنة(٢)، لم يدخل إليها تطوّر، أو يعتورها تغيّر.

٦ / تحديد مكانيّة الأخذ(٣)، وهو ما يُعْرَفُ بـ(الأطلس اللّغويّ) الّذي يجب أن يحدّده الباحث الوصفيّ، وهذا التّحديد للمكان سمة مهمّة إلى جانب سابقه في المنهج التّاريخيّ، فتنوّع الأمكنة الّتي تُجْمَعُ منها النّصوص اللّغويّة، وتعدّدها، ليس من عمل الوصفيّين، على حين تُوْصَفُ اللّغة محصورة في مكان واحد، فـ:(في كلّ بيئة لغويّة ظروف تدفع إلى تطوّر الكلام، وتغيّره في كثير من الظّواهر، وظروف أخرى تعمل على استقرار هذه الظّواهر، وتحصّنها، فلا يطرأ عليها تغيّر، أو تحوّر، غير أنّ الغلبة تكون دائما لعوامل التّطوّر)(٤).

٧ / للباحث الوصفيّ عمل مقيّد به، حيث يصف النّصّ المستقرى وصفا مباشرا، وليس من واجبه أن يصدر أحكاما معياريّة عليه؛ لتناقض المنهجين وميدان كلّ منهما، فوظيفة الوصفيّ:(تسجيل الواقع اللّغويّ كما هو بدون التّورّط في مسائل الصّواب والخطأ)(٥).

---

(١) يُنْظَر: فقه اللّغة في الكتب العربيّة: ٢١، والنّحو العربيّ والدّرس الحديث ــ بحث في المنهج: ٤٣.

(٢) يُنْظَر: فقه اللّغة في الكتب العربيّة: ٢١.

(٣) يُنْظَر: التّطوّر اللّغويّ التّاريخيّ: ٣٩، والمنهج الوصفيّ في كتاب سيبويه: ٣٨.

(٤) في اللّهجات العربيّة: ٧٦ ــ ٧٧، ويُنْظَر: علم اللّغة العربيّة ــ مدخل تاريخيّ مقارن في ضوء التّراث واللّغات السّاميّة: ٣٧.

(٥) دراسات في علم اللّغة: ٢ / ٥٦.

وليس للوصفيّ أن يفاضل بين جوانب من اللّغة، من حيث جيّدها، ورديئها، وحسنها، وخبيثها، من حيث المفاضلة كحكم، ولكن يجوز إطلاق مثل هذه النّعوت على سبيل الوصف، وعليه فإنّه:(ليس له أن يقتصر على جوانب من اللّغة مستحسنا إيّاها، وينحّي جوانب أخرى؛ استهجانا لها، أو استخفافا بها، أو لغرض في نفسه، أو لأيّ سبب آخر من الأسباب)[١].

٨ / ميدان المنهج الوصفيّ دراسة اللّغات الحيّة.

٩ / المنهج الوصفيّ يُعْنَى بدراسة اللّغة في ذاتها، ومن أجل ذاتها[٢]، أي إنّ هذا المنهج يُعْنَى بوصف اللّغة من حيث كونها نظاما قائما بذاته، ولذلك جعل سوسير موضوع الدّراسة اللّغويّة الوحيد اللّغة الّتي يجب أن تُرَى أنّها واقع مستقل، وأنّ الدّراسة فيها يجب أن تكون في ذاتها، ومن أجل ذاتها، وهو في ذلك يبتعد عن النّظر في اللّغات من حيث منهجها التّاريخيّ، والمقارن.

خلاصة البحث

للدّراسات اللّغويّة والنّحويّة أثر فعّال وكبير في مجال البحث العلميّ جذب انتباه عديد من اللّغويّين والباحثين له، وتبيّن لكثير منهم مكنونات لغويّة ونحويّة مخصوصة، كما كشف كثيرا ممّا لم يكن معروفا من قبل.

ونتيجة لتطوّر هذه الدّراسات فقد أخذت مجالا كبيرا في البحث العلميّ، ومنهجه، وعناوين فروع اللّغة داخل المناهج الدّراسيّة المعيّنة، ووصف المناهج التي يجري اتّخاذها بتأثير كامل في مجال البحوث، فضلا عن أن هذا المنهج صار له أنصاره، وملامحه، وأسسه، وأصبح يمتلك عناصر المنهج الرصين.

(١) علم اللّغة (مقدّمة للقارىء العربيّ): ٥١.

(٢) يُنْظَر: علم اللّغة العامّ: ٩.

مناهل البحث

أ / الكتب المقدّسة

(٠١) القرآن الكريم.

ب / الكتب المطبوعة

(٠٢) الاستقراء والمنهج العلميّ: د. محمود فهمي زيدان، دار الجامعات المصريّة، ١٩٧٧م.

(٠٣) أضواء على الدّراسات اللّغويّة المعاصرة: د. نايف خرما، المجلس الوطنيّ للثّقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٣٩٨هـ / ١٩٧٨م.

(٠٤) تاج العروس من جواهر القاموس: السّيّد محمّد المرتضى الزّبيديّ، المطبعة الخيريّة بمصر، ١٣٠٦ه.

(٠٥) التّطوّر اللّغويّ التّاريخيّ: د. إبراهيم السّامرّائيّ، ط٢، دار الأندلس للطّباعة والنّشر، بيروت / لبنان، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م.

(٠٦) تهذيب اللّغة: لأبي منصور محمّد بن أحمد الأزهريّ، تحقيق / أحمد عبد العليم، إبراهيم الأبياريّ، مطابع سجلّ العرب بالقاهرة، ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م.

(٠٧) جوانب من نظريّة النّحو: نعوم تشومسكي، ترجمة / مرتضى جواد باقر، مطابع جامعة الموصل، ١٩٨٥م.

(٠٨) دراسات في علم اللّغة: د. كمال محمّد بشر، دار المعارف بمصر، ١٩٦٩م.

(٠٩) دراسات في فقه اللّغة العربيّة: د. يعقوب السّيّد بكر، مطبعة المطبعة، لبنان، ١٩٦٩م.

(١٠) دلائل الإعجاز: عبد القاهر الجرجانيّ: تصحيح وتعليق / محمود رشيد رضا، نشر مكتبة القاهرة، ١٣٨١هـ / ١٩٦١م.

(١١) ديوان الهذليّين: الدّار القوميّة للطّباعة والنّشر، القاهرة، ١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م.

(١٢) الصّحاح في اللّغة والعلوم: إعداد وتصنيف / نديم مرعشليّ، أسامة مرعشليّ، ط١، دار الحضارة العربيّة، بيروت، ١٩٧٤م.

(١٣) العربيّة تواجه العصر: د. إبراهيم السّامرّائيّ، دار الحرّيّة للطباعة، بغداد، ١٤٠٢هـ / ١٩٨٢م.
(١٤) العربيّة وعلم اللّغة البنيويّ ــ دراسة في الفكر اللّغويّ العربيّ الحديث ــ: د. حلمي خليل، الفنّيّة للطّباعة والنّشر، دار المعرفة الجامعيّة، أسكندريّة، ١٩٨٨م.
(١٥) علم اللّغة العامّ: فردينان دي سوسير، ترجمة / يوئيل يوسف عزيز، دار آفاق عربيّة، ١٩٨٥م.
(١٦) علم اللّغة ــ مقدّمة للقارىء العربيّ ــ: د. محمود السّعران، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت.
(١٧) علم اللّغة العربيّة ــ مدخل تاريخيّ مقارن في ضوء التّراث واللّغات السّاميّة ــ: د. محمود فهمي حجازي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٣م.
(١٨) فقه اللّغة في الكتب العربيّة: د. عبده الرّاجحيّ، دار النّهضة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت، ١٩٧٩م.
(١٩) في اللّهجات العربيّة: د. إبراهيم أنيس، ط٢، مطبعة لجنة البيان العربيّ، ١٩٥٢م.
(٢٠) في نحو اللّغة وتراكيبها ــ منهج وتطبيق ــ: د. خليل أحمد عمايرة، ط١، عالم المعرفة، جدّة.
(٢١) القاموس المحيط: الفيروز آبادي، المؤسّسة العربيّة للطّباعة والنّشر، بيروت / لبنان.
(٢٢) لسان العرب: لابن منظور، مطابع كوستاتسوماس.
(٢٣) اللّغة بين العقل والمغامرة: د. مصطفى مندور، مطبعة أطلس، القاهرة، ١٩٧٤م.
(٢٤) اللّغة بين المعياريّة والوصفيّة: د. تمّام حسّان، مطبعة الرّسالة، ١٩٥٨م.
(٢٥) اللّغة العربيّة عبر القرون: د. محمود فهمي حجازي، ط٢، مطبعة دار نشر الثّقافة، الفجّالة، ١٩٧٨م.

(٢٦) مجمل اللّغة: أحمد بن فارس ، دراسة وتحقيق / زهير عبد المحسن سلطان، ط٢، مؤسّسة الرّسالة، بيروت، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م.
(٢٧) مدخل إلى الألسنيّة: يوسف غازي، ط١، مطابع ألف باء الأديب، دمشق، ١٩٨٥م.
(٢٨) معجم متن اللّغة: أحمد رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٣٨٠هـ/١٩٦٠م.
(٢٩) معجم مقاييس اللّغة: أحمد بن فارس، بتحقيق وضبط / عبد السّلام محمّد هارون، ط٢، مطبعة مصطفى البابيّ الحلبيّ بمصر، ١٣٩٢هـ / ١٩٧٢م.
(٣٠) المعجم الوسيط: إبراهيم مصطفى وآخرون، مطبعة مصر،١٣٨١هـ/ ١٩٦١م.
(٣١) مناهج البحث العلميّ: عبد الرّحمن بدوي، دار النّهضة العربيّة، ١٩٦٣م.
(٣٢) مناهج البحث عند مفكري الإسلام واكتشاف المنهج العلميّ في العالم الإسلاميّ: د. عليّ ساميّ النّشّار، ط٢، مطابع دار نشر الثّقافة، أسكندريّة، ١٩٦٦م.
(٣٣) مناهج البحث في اللّغة: د. تمّام حسّان، مطبعة النّجاح الحديثة، الدّار البيضاء.
(٣٤) النّحو العربيّ والدّرس الحديث ــ بحث في المنهج ــ: د. عبده الرّاجحيّ، مطبعة الانتصار، أسكندريّة، ١٩٨٨م.
(٣٥) نظريّة البنائيّة في النّقد الأدبيّ: د. صلاح فضل، ط٣، دار الشّؤون الثّقافيّة العامّة، بغداد، ١٩٨٢م.
(٣٦) نظريّة النّحو العربيّ في ضوء مناهج النّظر اللّغويّ الحديث: د. نهاد الموسى، ط١، المؤسّسة العربيّة للدّراسات والنّشر، ١٤٠٠هـ / ١٩٨٠م.

ج / الأطاريح

(٣٧) المنهج الوصفيّ في كتاب سيبويه: نوزاد حسن أحمد، رسالة دكتوراه، جامعة بغداد، كلّيّة الآداب، ١٤١١هـ / ١٩٩١م.

د / الدّوريّات

(٣٨) الفونيم بين النّحو العربيّ القديم وعلم اللّغة الحديث: د. عبد المنعم النّاصر، مجلّة آفاق عربيّة، آب، ١٩٩٠م.